امويات الكميت

د/ حمدان عبد الرحمن احمد

تكلمت في بحث سابق عن هاشميات الكميت ، وهي قصائد طوال من روائع شعر الكميت مدح فيها بنى هاشم فنسبت اليهم .. وسأتكلم - الآن - عن جانب آخر من شعر الكميت وهو ما أطلق عليه في تاريخ الادب باسم « أمويات الكميت » .

وقد يظن الكثيرون أن الكميت لم يمدح الا بنى هاشم الذين أخلص لهم الحب ودان لهم بالولاء وجند نفسه في الدفاع عن حقهم في خلافة المسلمين ولكن الباحث في تاريخ الرجل يرى أن له شعرا كثيرا في بنى أمية فهل كان الرجل منافقا يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه ؟ أم أنه كان مخلصا لبنى هاشم ؟ واذا كان كذلك فلم مدح الامويين ؟ ولم تقرب اليهم ونال جوائزهم ؟ وما العوامل التى دفعته اليهم هذا ما أستناوله بالدرس والتمحيص في هذا البحث .. وقبل أن أمضي في هذه الدراسة ينبغى أن أبين الاسباب التى من أجلها لجأ الكميت الى بنى أمية .. وقال فيهم أمويات :

أولا : الصدام مع والى بنى أمية على العراق :

في الحقبة التى لمع فيها نجم الكميت ، وكتب فيها هاشمياته كان خالد بن عبد الله القسرى واليا على العراق من قبل الخليفة الاموى هشام بن عبد الملك وكان خالد هذا من اليمن وما لبث أن وقع صدام عنيف بينه وبين الكميت بن زيد ، وقد نصاربت

الروايات حول نشأة هذه الخصومة .. ويمكن أن نستخلص من مجموعها أن السبب المباشر فيها هو دفاع الكميت عن مبادىء الزيدية ، ذلك أن خالدا القسرى كان يكره زيد بن على بن الحسين شأنه فى ذلك شأن سائر بنى أمية ، وكان يرصد حوله العيون والجواسيس لتقييد حركته مما أحفظ الكميت على خالد حبا في امامة زيد بن على .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان شاعرا من أهل الشام يقال له حكيم بن عياشي الكلبى قد نج في خصومة مضر وهجاها بفحش الخول وزور الكلام ، ولم يكتف بذلك بل انه كان في هجائه لمضر يحمل بعنف على الهاشميين ، ويتهجم في وقاحة على شخص الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه .. واذ قد بلغ الامر به الى هذا الحد من التعرض لعقيدة الكميت لم يجد الكميت بدا من الصمت معه ورأى أن هذه فرصة يهجو فيها خالد بن عبد الله القسرى عدو امامه زيد .. فوقف مدافعا عن مضر دونا مناقبها ومشيدا بفضائلها ، وكأنه يريد أن يحدث بشعره هذا فوضي في العراق بين اليمنية والمضرية فينفذ من خلال ذلك امامه زيد الى ما يريد من ثورة وانقضاض على الدولة (١) .

فكتب مذهبته التى أولها :

ألا حييت عنا يا مدينا وهل أحد تقول مسلمينا

وهى قصيدة طويلة جدا أربت أبياتها على الثلاثمائة بيت والتى تناول فيها الكميت اليمن فلم يترك حيا من أحيائها الا لطخه بالمثالب والعيوب ، ولقد كانت هذه القصيدة سببا في ثورة عارمة بين اليمن ونزار كما كانت سببا في تحزب المشاعر العربية .

---

(١) التطور والتجديد في الشعر الاموى ص ٢٢٩ د. شوقى ضيف .

وكأن الكميت أراد بهذه المذهبية أن يشيع الفرقة في العراق بل في الدولة الاموية بأثرها حتى يجد فيها بنو هاشم فرصة للانقضاض على الخلافة .

ولم تكن هذه المذهبة دليلا على تعصب الكميت القبلي وانما كان الغرض منها سياسيا بحتا ، وهو احداث البلبلة في صفوف الامويين وبث الفرقة بين القبائل ، واشاعة الفوضى في البلاد حتى تضطرب أحوال الدولة ويتفرط عقدها ، ولا أدل على ذلك من أن الكميت قد افتخر ببني أمية مع أنه في هذه المذهبة مع كرهه لهم حتى يجنب بني هاشم هجاء حكيم بن عياش شاعر اليمن .. ولقد تعجب ابنه المستهل من فخره ببني أمية مع أنه يشهد عليهم بالكفر فقال له يا أبتي : انك هجوت الكلبي وغمزت عليه وفخرت ببني أمية وأنت تشهد عليهم بالكفر هلا فخرت بعلي وبني هاشم الذين تتولاهم ؟

فقال : يا بني أنت تعلم انقطاع الكلبي الى بني أمية وهم أعداء علي عليه السلام فلو فخرت بعلي لترك ذكري وأقبل على هجائه فأكون قد عرضت عليا له ، ولا أجد له ناصرا من بني أمية ففخرت عليه ببني أمية وقلت ان نقضها على قتلوه وان أمسك قتلته غما فكان كما قال : أمسك الكلبي عن جوابه وأفحم (١) .

ولا شك أن هذه المذهبة قد أحفظت خالد القسري اليمني على الكميت لان فيها هجاء مرا لاهله وعشيرته فظل يتربص بالكميت الدوائر ويتحين الفرص للانقضاض عليه حتى ظفر به في النهاية ونجح في اسخاط هشام بن عبد الملك عليه وكان ذلك بداية محنة الكميت .

---

(١) الاغاني ١٥ : ١٢٩

وقد ضخم الرواة قصة سخط هشام على الكميت تضخيما واسعا فعرضوها في صور مختلفة بل ومتناقضة أيضا ..

فتزعم احدى هذه الروايات أنه وجدت بباب هشام بن عبد الملك رقعة فيها شعر فدخل بها على هشام وقرئت عليه فاذا فيها :

تألق برق عندنا وتقابلت
أثاف لقدر الحرب أحشي اقتبالها
فدونك قدر الحرب وهى مقرة
لكفيك واجعل دون قدر جعالها
ولن تنتهى أو يبلغ الامر حده
فنلها برسل قبل أن لا تنالها
فتجشم منها ما جشمت من انتى
بسوراء هرت نحو حالك حالها
تلاف أمور الناس قبل تفاقم
بعقدة حزم لا تخاف انحلالها
فما أبرم الاقوام الا لحيلة
من الامر الا قلدوك احتيالها
وقد تخبر الحرب العوان بسرها
وان لم تبح من يريد سؤالها (١)

فأمر الشعراء بأن يجمع له الرواة وقرئت عليهم الابيات وطلب منهم أن يجتهدوا في التعرف على قائلها فأجمعوا من ساعتهم أنها من كلام الكميت بن زيد فقال هشام : نعم هذا الكميت ينذرنى بخالد بن عبد الله القسرى ثم كتب من فوره الى خالد يخبره كما أرسل اليه بالابيات وهو يومئذ بواسط فكتب خالد الى واليه بالكوفة

---

(١) الاغانى ١٥ : ١٢٢

يأمره بأخذ الكميت وحسبه ، وتمضي الرواية فتزعم أن خالدا طلب من أصحابه أن يأتوا بشعر من شعر الكميت في بنى هاشم والتى يهجو فيه بنى أمية ليكون دليلا على اتهامه فأتوا بلاميتـــه التى مطلعهـــا :

ألا هل عم في رأيه متأمـــل وهل مدبر بعد الاساءة مقبل

وهى قصيدة طويلة تكاد تكون هجوما صرفا على بنى أميـة فكتبها خالد وأرسلها في كتابه الى هشام وقال له : هـــذا شعر الكميت فان كان قد صدق في هذا فقد صدق في ذلك . فلما قـــرئت على هشام أكبرها واشتد غيظه وبخاصة عندما بلغ الكميت قوله:

فيا ساسة هاتوا لنا من جوابكم ففيكم لعمرى ذو أفانين مقول

فأرسل الى خالد يطلب منه أن يقبض على الكميت ويقتله ويهدم داره ويصلبه فوق أنقاضها فقبض خالد على الكميت وأودعه السجن ولم ينفذ ما جاء في كتاب هشام خوفا من ثورة بنى أســـد رهط الكميت .. واكتفى بسجنه ولما علم الكميت وهو بمحبســه بنية الخليفة خاف على نفسه . فأرسل الى زوجته وكانت تتردد عليه في السجن في ثياب وهيئة حتى عرفها الحراس فلما دخلت اليه لبس ثيابها وخرج فيها دون أن يثنيه اليه الحراس وفي ذلك يقول الكميت .

خـرجت خروج القدح قدح بن مقبل
على الرغم من تلك النوابح والمشلى (١)

---

(١) قدح ابن مقبل : من قـــداح الميسر كان لبنى عامر بن صعصعة ، ولا يجعل في القداح الا خرج فائزا .
المشلى : هو الذى تفرى الكلاب بالصيد .

على ثبـــاب الغـــانيات وتحتها
عزيمـة أمر أشبهت سلة النصـــل

وتوجه من فوره الى الشام مستغيثا بأشراف بنى أمية ، ولما كان ذنب الكميت عظيما فلم يجرؤ أحد على طلب العفـــو له من هشام ٠٠ ونصحه بعضهم أن يستجير بمسلمة بن هشام وبأمه أم حكيم بنت يحيى ولكن الكميت خشي أن يضـــيع دمه بين صبية وامرأة فنصحوه بأن يضرب قبة عند قبر معاوية بن هشام وكان قد توفي وشيكا كما كان هشام يحبه حبا عظيما وقد جعل على نفســه أن يزور قبره في يوم معين من كل أسبوع وفعل الكميت ذلك في اليوم المعين لزيارة هشام فلما جاء هشام نظر الى القبر وسأل أصحابه : ما أمر هذه القبة ؟ فقالوا أنه الكميت مستجيرا بقبر معاوية بن أمير المؤمنين ولكنه لم يعبأ بذلك وأمر بقتله فكلمه مسلمة في شـــأنه وذكر له أن اخفار الاموات عار على الاحياء ولم يزل يعظم عليـــه الامر حتى عفا عنه (١) ٠

وهناك رواية ثانية تذهب الى أن خالد القسرى عندما حنـــق على الكميت بعد نظمه المذهبة التى نالت من عشـــيرة خالد ومن اليمنيين جميعا فكر في حيلة ينتقم بها من الكميت فاشترى جارية حسناء ورواها هاشميات الكميت وأهداها الى الخارفة هشـام بن عبد الملك بالشام وكتب اليه بأخبار الكميت وهجائه بنى أميـــة وكتب اليه هاشميته التى يقول فيها :

فيارب هل الا بك النصر يرتجى وهل الا عليك المعول

فلما قرأها هشام أكبرها وكتب الى خالد يأمره بأن يقطـــع لسان الكميت ويده فأخذته خيل خالد الى الحبس ، ثم تتفق مـع الرواية السابقة في احتيال الكميت للخروج من السجن في ملابس امرأته ٠

---

(١) الاغانى ١٥ : ١١٦

وتمضي الرواية فتذكر أن الكميت مكث مدة عند بنى علقمة، – وكانوا يتشيعون – حتى خف عنه الطلب فخرج قاصدا الشام في جماعة من بنى أسد فلما بلغ دمشق قصد أشراف قريش الذين دلوه على عنبسة بن سعيد بن أبى العاص فنصح له أن يعود بقبر معاوية بينما قصد عنبسة ، مسلمة بن هشام وأبلغه أن الكميت مدحه بمدائح لم يسمع بمثلها وطلب اليه أن يكون السبب في خلاصه، فلما دخل مسلمة على أبيه أخبره أن حاجته مقضية الا أن تكون الكميت ولكنه ما زال بأبيه وبمعونة أمه حتى حصل له على الامان (١) .

وهناك رواية ثالثة تزعم أن خالدا لما غضب على الكميت لم يرسل الى هشام جارية واحدة كما تزعم الرواية السابقة وانما أعد له ثلاثين جارية اشتراهن بأغلى الثمن وتخيرهن نهاية في الحسن ورواهن الهاشميات ودسهن مع نخاس الى الشام فاشتراهن هشام جميعا ثم استنطقهن فوجد فيهن فصاحة وأدبا واستقرأهن القرآن فقرأن ، ثم رواهن الشعر فأنشدنه هاشميات الكميت فغضب وسألهن عن صاحب الشعر فأنبأنه بأنه الكميت بن زيد الاسدى فكتب الى خالد أن يبعث اليه برأسه فبعث خالد اليه فأخذه ليلا وأودعه السجن وتتفق الروايات جميعا في خروج الكميت فأخذه ليلا بمساعدة زوجته ، وذهابه الى الشام ، قاصدا هشاما . وتذكر هذه الرواية أنه استجار بمسلمة بن عبد الملك الذى أحاله بدوره الى مسلمة بن هشام فقام الاخير بالسفارة بينه وبين أبيه ولكن أباه يغضب ويقول له أتجير على أمير المؤمنين بغير أمره ؟ فقال : كلا ولكنى انتظرت سكون غضبه ..

---

(١) مشاهد التنصيص للعباسي ص ٩٨ .

فقال أحضرنيه الساعة فانه لا جوار لك ، فقال مسلمة للكميت يا أبا المستهل ان أمير المؤمنين أمرني باحضارك . فقال الكميت أتسلمني يا أبا شاكر ؟ قال : كلا ولكني أحتال لك . ثم قال له : ان معاوية بن هشام قد مات قريبا وقد جزع عليه جزعا شديدا فاذا كان من الليل فاضرب رواقك على قبره وأنا أبعث اليك بنيه يكونون في الرواق فاذا دعا بك طلبت منهم أن يربطوا ثيابك بثيابهم ويقولون : هذا مستجير بقبر أبينا ونحن أحق باجارته ، فلما أصبح هشام تطلع الى القبر كعادته فقال ما هذا ؟ فقالوا : لعله مستجير بالقبر ، فقال : يجار من كان الا الكميت ، فانه لا جوار له فقيل اتاه الكميت فقال : يحضر أعنف احضار فلما دعا به ربط الصبيان ثيابهم بثيابه فلما نظر هشام اليهم اغرورقت عيناه واستعبروا وهم يقولون يا أمير المؤمنين : استجار بقبر أبينا وقد مات ومات حظه من الدنيا فاجعله هبة لنا ، ولا تفحصنا فيمن استجار به فبكى هشام حتى انتحب ثم رد على الكميت حريته ووهبه لهم (١) .

(ب) عفو هشام عنه ومديحه لبني أمية

وكما تختلف الروايات في شأن حبس الكميت عنه وسخط هشام عليه وكيفية اطلاق سراحه تختلف كذلك في تصوير اللقاء الاول بينه وبين هشام .. فتذهب احدى الروايات الى أن الكميت لما دخل على هشام سلم عليه ثم قال : يا أمير المؤمنين غائب آب ، ومذنب تاب محا بالانابة ذنبه ، وبالصدق كذبه ، والتوبة . تذهب الحوبة ، ومثلك حلم عن ذي الجريمة ، وصفح عن ذي الريبة . فقال هشام : ما الذي نجاك من القسري ؟ فقال الكميت : صدق النية في التوبة . فقال هشام : ومن سن لك الغي وأورطك فيك ؟ قال : الذي أغوى

---

(١) الاغاني ١٥ : ١١٣

أدم فنسي ولم يجد له عزما فان رأيت يا أمير المؤمنين فدتك نفسي أن تأذن لى بمحو الباطل بالحق ٠٠ فلما أذن له أنشده :

ذكر القلب الفه المهجـــورا وتلاقى من الشباب أخيرا (١)

وتذهب رواية أخرى الى أن الكميت عندما أمنـــه مسلمة بن هشام وغضب لذلك أبوه أخبره مسلمة بأنه قال فيهم شعرا لم يقل أحد مثله فأجاز هشام أمان ابنه وأمر بأن يخصص مجلس ينشد فيه الكميت ما قاله في بنى أمية فجلس هشام وعنـــده الابرش الكلبى وتكلم الكميت بخطبة ارتجلها ما سمع بمثلها قط وامتدحه بقصيدته الائية التى يقول الرواة : انه ارتجلها ارتجالا فلمـا بلغ قـــوله :

فالآن صرت الى أمي ـــة والامور الى المصائر

جعل هشام يغمز مسلمة بقضيب في يده ويقول اسمع ٠ اسمع ثم ان الكميت استأذنه في أن يرثى إبنه معاوية فأذن له فأنشـده قصيدته الثانية حتى اذا بلغ منها قوله :

ســـأبكيك للدنيا وللدين اننى
رأيت يد المعروف بعدك شلت
فدامت عليك بالسلام تحية
ملائكة الله الكرام وصلت

بكى هشام بكاء شديدا حتى وثب حاجبه فأســـكته وتمضي الرواية فتذكر أن الكميت مضي الى منزله آمنا فحشدت له المضرية بالهدايا والالطاف وأمر له مسلمة بن هشام بعشرين ألف درهم كما أمر له هشام بأربعين ألفا وجمع له بنو أمية فيما بينهم مالا كثيرا وكتب هشام الى خالد بن عبد لله بأمانه وأمان أهل بيتـــه وأنه

---

(١) المصدر السابق ج ٥١ ص ١١٦

لا سلطان له عليهم . وإضيف الرواية أنه لم يجمع من قصيدته تلك يومئذ الا ما حفظه الناس منها حتى أن الكميت لما سئل عنها قال : ما أحفظ منها شيئا انما هو كلام ارتجلته وودع الكميت هشاما بعد أن أنشده قوله :

ذكر القلب الفه المهجورا
وتلاقى من الشباب أخيرا (١)

وهناك رواية ثالثة تذهب الى أن هشاما عندما شاهد الكميت قال له يا كميت أنت القائل :

وان لا تقولوا غيرها تتعرفوا
نواصيها تردى بنا وهى شزب

فقال لا والله ، ثم حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال : أما بعد فانى كنت أتهدى في غمرة وأعوم في بحر هواية ، أخلى على عطلها ، واستفزنى وهلها ، فتحيرت في الضلالة وتسكعت في الجهالة مهرعا عن الحق ، جائرا عن القصد ، أقول الباطل ضلالا ، وأفوه بالبهتان وبالا ، وهذا مقام العائذ مبصر الهدى ، ورافض العماية ، فأغسل عنى يا أمير المؤمنين الحوبة ، واصفح عن الزلة واعف عن الجرمة ثم قال :

كم قال قائلكم لعا ... لك عند عثرته لعاثر
وغفرتم لذوى الذنو ... ب من الاكابر والاصاغر
أبنى أمية انكم ... أهل الوسائل والاواصر
ثقتى بكل ملمة ... وعشيرتى دون العشائر
أنتم معادن للخلا ... فة كابرا دن بعد كابر
بالتسعة المتتابعـ ... ين خلائفا وبخير عاسر
والى القيامة لا تزا ... ل لشافعمنكم دوائر (٢)

---

(١) الاغانى ١٥ : ١١١
(٢) المصدر السابق ١٥ : ١١٣

ثم قطع الانشاد وعاد الى الخطبة فقال : أغضاء أمير المؤمنين وسماحته وصباحته ، وإمناط المتجعين بحبله من لا نحن حبوته لاساءة المذنبين فضلا عن استشاطة غضبه بجهل الجاهلين فقال له هشام : ويلك يا كميت من زين لك الغواية ؟ ودلاك في العماية ؟ قال : الذى أخرج أبانا من الجنة وأنساه العهد فلم يجد له عزما فقال هشام : ايه فأنت القائل :

فيا موقدا نارا لغيرك ضوؤها ويا حاطبا في غير حبلك تحطب

فقال الكميت : بل أنا القائل :

الى آل بيت أبى مالك
مناخ هو الارحب الاسهل
نمت بأرحامنا الداخلا
ت من حيث لا ينكر المدخل
بمرة والنضر والمالكين
رهط هم الانبل الانبل
زبارى خزيمة بدر السما
ء والشمس مفتاح ما يأمل
وجدنا قريشا قريش البطا
ح على ما بنى الاول الاول
بهم صلح الناس بعد الفساد
وحيص من الفتق ما رعيلوا (١)

فقال هشام : وأنت القائل :

لا عبد الملك أو كوليد
أو سليمان بعد أو كهشام
من يمت لا يمت فقيدا ومن
يحيى فلاذو الا ولاذو ذمام

(١) الاغانى ١٥ : ١١٣

فقال هشام : ويلك يا كميت جعلتنا ممن لا يرقب في مؤمن الا ولا ذمة !!

فقال الكميت بل أنا القائل يا أمير المؤمنين :

الآن صـــرت الى أميـــة
والامـــور الى المصـــائر
والآن صـــرت بها المصيـ
ـب كمهتـــد بالامس حائر
يا ابن العقـــائل لعقـــا
ئل والجحاجحة الاخـــابر
من عبـــد شـــمس والالا
ف برغم ذى حسد وواغـر
دلفا من الشرف التليـــد اليك بالرفد الموافر
فحللت معتـــلج البطـــا
ح وحـــل غيرك بالظواهر (١)

فقال هشام : ايه فأنت القائل :

فقل لبنى أمية حيث حلوا
وان خفت الهند والقطيعا
أجاع الله من أشـــبعتموه
وأشـبع من بجوركم أجيعا
بمرضي الســياسة هاشمى
يكون حيا لأمته ربيعـــا

فقال الكميت : لا تثريب يا أمير المؤمنين ، رأيت أن تمحـــو عنى قولى الكاذب ، قال هشـــام بماذا ؟ فقال الكميت بقولى الصـــادق :

---

(١) المرجع السابق ١٥ : ١١٣

أورثته الحصان أم هشام
حسبا ثاقبا ووجها نضيرا
وتعاطى به ابن عائشة البد
ر فأمسي له رقيبا نظيرا
وكساه أبو الخلائف مروا
ن سنى المكارم المأثورا
لم تجهم له البطاح ولكن
وجدتها له معانا ودورا (١)

وكان هشام متكئا فاستوى جالسا وقال لسالم بن عبد الله بن عمر وكان الى جانبه هكذا فليكن الشعر ثم قال الكميت قد رضيت عنك فقبل الكميت يده وقال : يا أمير المؤمنين ان رأيت أن تزيد في تشريفى فلا تجعل لخالد على امارة ، قال : قد فعلت وكتب بذلك وأمر له بأربعين ألف درهم وثلاثين ثوبا هشامية ، وكتب الى خالد بأن يخلى سبيل امرأته وبأن يعطيها عشرين ألف درهم وثلاثين ثوبا ففعل (٢) .

وأغلب الظن أن الكميت قد مثل أمام هشام مرتين لا مرة واحدة وأن المرة الاولى كانت بعد أن قبل هشام شفاعة أبناء معاوية فيه فدخل عليه الكميت خائفا وجلا حتى انه كان يخطب ثم يترك الخطابة الى الشعر ثم يعود الى الخطابة وماذاك الا لخوفه من هشام وشدة حرصه على النجاة ولقد حاول هذه المرة أن يعتذر الى هشام عما بدر منه في حق بنى أمية فبين له أنه كان ضالا فاهتدى الى الصواب ولقد كان هشام يحاول أن يعرف من الذي دل الكميت على العصيان والتمرد . ولا أكون مبالغا اذا قلت أنه حاول من وراء

---

(١) الاغانى ١٠ ـ ١١٤
(٢) المرجع السابق .

هذا أن يورط الكميت ليتهجم على بنى هاشم ويهبوهم ـ كما هجا بنى أمية ـ ولكن الكميت كان أكثر منه دهاء وأشد منه مكرا فلم يمكنه من ذلك وانما نسب ذلك لى الشيطان الذى أخرج آدم من الجنـــة ٠

ولا أكون مجانبا لصواب اذا قلت : ان هشاما أراد أن يحـــرج الكميت بهذا العتاب وأن يتهمه بالنفاق والدهان وعدم الاخلاص في الولاء لبنى اهشم ٠٠

ولقد كان الكميت في اللقاء الاول هذا غير مستعد للمقابلة بدليل أنه ارتجل كلامه شعرا ونثرا حتى انه لما سئل عن قصـــيدته الرائية في بنى أمية قال : لا أدرى انما هو كلام ارتجلته ٠

وأما اللقاء الثانى فيبدو أن الكميت كان قد أعد له العدة حيث استطاع أن ينتزع بشعره اعجاب هشام والحاضرين عندما أنشدهم قصيدته الرائية التى مطلعها :

ذكر القلب الفه المعجورا وتلاقى من الشباب أخيرا

مما جعل هشاما يرضي عنه ويؤمنه على نفسه وعلى أسرته ويجيزه ويمنحه الاموال والهبات ٠٠

وتتفق الروايات جميعا على أن الكميت أرضي الامويين بشعره وأنه نال جوائزهم وأنه حرص على أن يأخـذ من هشـام أمانة من عدوه اللدود خالد القسرى والى العراق من قبل بنى أمية ٠٠

ولنا أن نتساءل بعد أن رأينا كيف صار الكميت الى بنى أمية، هل كان صادقا في مدحه لهم ؟ وهل كان حقا ضالا فاهتدى ؟ وهل صحيح أن ما قاله فيهم من شعر يفوق في الجـــودة ما قاله في بنى هاشـــم ؟

ان الشعر الجيد يقاس بعـــدة مقاييس يرجـــع بعضها الى

الصياغة والاسلوب ويرجع بعضها الى الخيال والقدرة على التصوير ويرجع بعضها الى المعنى والمضمون ويرجع بعضها الى عمق الاحساس وحرارة العاطفة وسأحاول في الجزء الباقى من هذا الموضوع أن أطبق هذه المقاييس على أمومياته لنرى الى أى حد كان الكميت صادقا فيها ثم استشهد على ذلك بأقوال وشواهد قد تكون خارجة عن النص ولكنها تساعد الى حد ما على اصدار الحكم السليم في هذا الشأن ٠

* * *

أضواء على الامويات

(أ) مصادر الالهام فيها :

لقد أعجب بعض النقاد بالامويات وزعم أن الكميت أجاد فيها أكثر من الهاشميات ٠ ومن هؤلاء ابن قتيبة الذى زعم أن مدائح الكميت لبنى أمية تفوق مدائحه في بنى هاشم وعلل ذلك بأن دافع الطمع في الجائزة أقوى من دافع التحيز لفريق من الناس (١) ٠

وسار على هذا الرأى بعض الباحثين العصريين (٢) الذين اتهموا الكميت بالجبن والتناقض وعدم الاخلاص لعقيدته مستدلين على ذلك بما رواه أبو الفرج في أغانيه من أن ابن شبرمة ـ وقد لاحظ أن الكميت قد أحسن في الامويات ـ فسأله عن ذلك فقال : اننى اذا قلت أحببت أن أحسن (٣) ٠

والحق أن ابن قتيبة وأضرابه قد ظلموا الكميت في هذا الادعاء

---

(١) أنظر مقدمة الشعر والشعراء لابن قتيبة ٠
(٢) أدب الخوارج ص ١٣٦ د٠ سهير القلماوى ٠
(٣) الاغانى ١٥ : ١١٦ ٠

.. فما كان الرجل من طلاب الدنيا ، ولا كان للمال سلطان عليه ولا أدل على ذلك من أنه مدح الهاشميين في وقت كانت الدنيا منصرفة عنهم ، والسلطان في يد أعدائهم .. فعل هذا وهو لا يرجو الا رضا الله والتقرب اليه استمع الى قوله في ذلك :

الى النفر البيض الذين يحبهم
الى الله فيما نالنى أتقـــرب
بنى هاشم رهط النبى فاننى
بهم ولهم أضي مرارا وأغضب
خفضت لهم منى جناحى مودة
الى كنف عطفاه أهل ومرحب

والى قـوله :

بأى كتاب أم بأية سنة
ترى حبهم عارا على وتحسب
فما لى الا آل أحمد شيعة
ومالى الا مذهب الحق مذهب

والى قـوله :

ألم ترانى من حب آل محمـــد
أروح وأغدو خائفـــا أترقب
على أى جرم أم بأية سيرة أعنف في تقريضهم وأؤنب

ومن المؤكد أن تشيع الكميت لم يكن للدنيا ، ولو كان من طلاب الدنيا لاتى من يملكونها من حكام بنى أمية ولا أدل على ذلك من أنه دخل على أبى جعفر محمد بن على فأنشده قصيدته التى أولها

من لقلب متيم مستهام

فأمر له بمال وثياب فقال الكميت : والله ما أحببتكم للدنيا ،

ولو أردت الدنيا لاتيت من هى في يديه ولكننى أحببتكم للاخرة فأما الثياب التى أصابت أجسامكم فانتى أقبلها ابركتها وأما المال فلا أقبله فرد المال وقبل الثياب (١) والامثلة على ذلك كثيرة ..

وشواهد الحال تدلنا على أنه لم يمدح بنى أمية الا مكرها . وهو بذلك لم يناقض نفسه ، ولم يغير عقيدته الشيعية التى تبيح التقية مصانعة للعدو ..

ثم هذه الامويات ما مصادر الالهام فيها ؟ وما الذى جعل الكميت يذهب الى الشام ، قاصدا هشاما ؟ هل ذهب الى هنالك ليمدح بنى أمية راضيا مختارا ، لو أنه فعل ذلك لقلنا أنه منافق متناقض مع نفسه ، غير مخلص لعقيدته .. ولكن التاريخ يحدثنا أنه ما ذهب الى الشام الا مكرها ، وتحت شعار التقية الذى يؤمن به الشيعة . مدح هشاما وغير هشام من الامويين .. ولو كان طالبا للمال ، أو راغبا في الدوال - كما يزعم ابن قتيبة - لاتاهم راضيا مختارا وأقام في كنفهم ، ووهب حياته للدفاع عنهم ، وتقرير مبدئهم في الحكم ومذهبهم في السياسة .. اذن لانهالت عليه الاموال وعاش في ظلالهم آمنا مطمئنا لان الدنيا كانت في أيديهم ، والمال مكدس في خزائنهم .. ولكنه ترك كل ذلك ومدح بنى هاشم وهجا بنى أمية وهو يعلم أن ذلك يعرضه للهلاك ..

واذا كان الكميت جبانا جشعا فماذا نقول في سائر شعراء بنى أمية الذين كانوا يتساقطون كالفراش على أضوائهم حتى ولو أدى ذلك الى هجاء بنى هاشم والنيل منهم ومخالفة كل مقاييس العدل والمنطق ..

اذن فمصادر الالهام في الامويات هو ذلك التهديد الذى وجهه هشام بن عبد الملك الى الكميت بقطع يديه ورجليه ولسانه وقتله

---

(١) معاهد التنصيص ص ٩٥

وصلبه على أنقاض داره ولولا ذلك لما ذهب الى قصورهم ولما دخلهم ، فالخوف من بطش بنى أمية ، والرغبة في النجاة بحياته هما اللذان دفعا الكميت الى مديحهم ..

(ب) الصياغة والصور

يمتاز شعر الكميت بصفة عامة بجزالة الالفاظ ورصانة الاسلوب وقوة الجرس ، وفخامة العبارة والتحرر من قيود البديع ، وكان يمتاز كذلك بكثرة الغريب الذى كان يتحدى به الرواة ، وكان لشعره ديباجة معروفة حتى ولو لم يقرن اسمه به ..

هذه هى أبرز خصائص شعر الكميت فهل ارتفع شعره في بنى أمية الى مستوى هذه الخصائص أم أنه هبط شعره فيهم الى منزلة أقل لنقرأ هذه المقطوعة التى يمدح فيها هشاما :

أورثته الاحصان أم هشام
حسبا ثاقبا ووجها نضيرا
وتعاطى به ابن عائشة البد
ر فأمسى له رقيبا نظيرا
وكساه أبو الخلائف مروا
ن سنى المكارم المأثورا
لم تجهم له البطاح ولكن
وجدتها له معانا ودورا

وما قصدت أن أختار هذه المقطوعة الا لان هشاما ـ فيما رواه أبو الفرج ـ فقد أعجب بها أشد الاعجاب حتى أنه استوى جالسا بعد أن كان متكئا وقال : هكذا فليكن الشعر ، لقد رضيت عنك يا كميت .

ومعنى ذلك أنها من عيون أمويات من أحسنها في نظر هشام لانها كانت السبب المباشر في رضائه عن الكميت ...

والناظر في هذه المقطوعة يلاحظ من أول وهلة أنها دون شعر الكميت من حيث الصياغة الفنية فكلامها سهل واضح بل انه بكلام العوام أشبه ، وليس في هذا انتقاص لشاعرية الكميت أو الحط من شأنه فقد كان الرجل شاعرا فحلا قد شهد له بذلك الفرزدق الذى قال له عندما سمع احدى هاشمياته يا ابن أخى أذع ثم أذع فأنت والله أشعر من مضي وأشعر من بقى (١) .

ومما أظن أن هشاما قد أعجب بها الا لانه قد ظن أن الكميت بمدحه له قد صار أمويا لان هذه أمنية طالما تمناها هشام وغيره من كبراء بنى أمية . ولذلك فقد رضي عنه بأقل شيء على أن يقاطع بنى هاشم خصومه الالداء ولو كان الكميت مخلصا لبنى أمية لارتفع في مدحه لهم الى مستوى شعره في بنى هاشم وفي غيرهم .

واذا ما انتقلنا الى الصور البيانية نجد أنها قليلة جدا في أمويات الكميت كما هى قليلة في سائر شعره ولكن صوره في الامويات كانت متداولة مبتذلة أنظر الى قوله في هشام :

وتعاطى به ابن عائشة البد ر فأمسي له رقيبا نظيرا

فهو يشبهه بالبدر ، وهو تشبيه مبتذل لا خيال فيه ولا غرابة وهكذا نجد هبوطا في مستوى الصياغة وضعفا في الصور البيانية ولعل ذلك راجع الى أن الكميت لم يستعد لمديح بنى أمية ومن ثم فقد جاءت هذه الامويات دون شعره .

وأما قول الكميت عندما سأله ابن شبرمه . انك قلت في بنى هاشم فأحسنت ، وقلت في بنى أمية أفضل فأجابه الكميت : انني اذا قلت أحببت أن أحسن .. أقول لا تعد هذه شهادة من الكميت بأنه أحسن في أمويات بقدر ما هى شهادة لنفسه بالفحولة ، والتفوق . والقدرة على الاجادة في أى ميدان والاحسان في أى مناسبة .

---

(١) خزانة الادب ١ : ١٠

(ج) مضمون الامويات

المضمون هو المحتوى الشعرى بكل عناصره وجزئياته،فالتجربة وأبعادها وعناصرها ، والافكار التى تتألف منها ، والمعانى التى تتسلسل خلالها كل ذلك ما يمكن أن نطلق عليه اسم المضمون . وعلى هذا الاساس فما مضمون الامويات ؟ وما المعانى والافكار التى دارت حولها ؟

لا شك أن المديح هو العنصر الغالب في أمويات الكميت فهو يمدح بنى أمية تحت تأثير المحنة القاسية التى عاشها ، والتى كادت تودى بحياته ، ومع ذلك تأمل معى لترى طبيعة هذا المدح وما جاء فيه من صفات ، أن المتأمل في أمويات الكميت يجد أنه يصف بنى أمية بصفات حسية دنيوية كنضارة الوجه وعراقة الاصل وشرف المحتد وغير ذلك من الصفات العامة التى كان يوصف بها أشراف العرب في الجاهلية ولا نكاد نجد في أمویاته أثرا لصفة واحدة من الصفات الدينية التى ينبغى أن يتحلى بها الحاكم المسلم . والتى كان بنو أمية يتمنون أن يوصفوا بها ، ذلك بأنهم كانوا يشعرون أنهم مغتصبون للخلافة من بنى هاشم والسابقين الى الاسلام من قريش ، وكانوا يعرفون أن تاريخهم في الاسلام ، ومنزلتهم من النبى لا ترشحهم لخلافة المسلمين ، ومن ثم فقد كان أحب شيء الى قلوبهم أن يصفهم الشعراء بصفات دينية كالعدل والورع والتواضع حتى يكون لحكمهم سند من الشرعية.. ولكن الكميت الذى مجد الهاشميين ورفعهم في شعره الى درجات الانبياء لم يفعل ذلك مع بنى أمية وانما وصفهم بصفات دنيوية حسية ، شأنهم في ذلك شأن ملوك العرب في الجاهلية من الغساسنة والمناذرة ، ففى قصيدته الرائية التى أعلن فيها صيرورته الى بنى أمية يقول :

فالآن صـــرت الى أميـــ ـــة والامور الى المصائر
والآن صـرت بها المصيـــ ـــر كمهتد بالامس حـائر
بـابن العقـــائل للعقا والحجاجـــة الاخـــاير
من عبـد شمس ولاكابر بر من أميـــة فالاكابر
ان الخـــــلافة والالا ف برغم ذى حســـد وداغر
دلفـــا من الشرف التلـــ ـــيد اليك بالرفد الموافـر
فحللت معتـــاج البطـــا ح وحل غيرك بالظـواهر

لقد مدح هشاما في هذه المقطوعة فوصفه بعراقة الاصل وشرف النسب فهو قد ورث الخلافة كابرا عن كابر ولم نجد فيها صـــفة دينية واحدة على غرار ما كان يصف بنى هاشم ..

ولنقرأ المقطوعة الآتية من أمورياته لنتحقق من صدق ما نقول يقول في هشام بن عبد الملك :

أورثتـــه الحصان أم هشام
حسبا ثاقبا ووجها نضـيرا
وتعاطى به ابن عائشة البد
ر فأمسي له رقيبا نظـــيرا
وكســـاه أبو الخـــلائف مروا
ن سنى المـــكارم المـأثورا
لم تجهم له البطـاح ولـــكن
وجدتها له معـــــانا ودورا

يصف هشاما بأن أمه حرة مصونة وأن وجهه نضير وأنه يشبه البدر في الحسن ، وأنه ورث المكارم عن جده مروان وهذه كلها صفات حسية دنيوية كسابقتها .. وهى صفات لم تكن تروق لبنى أمية بل كانوا أحيانا ينفرون منها ، ويعترضون عليها ، ويوجهون اللوم لقائلها ولا أدل على ذلك من أن عبد الملك بن مروان لم يقبل أن يوصف بمثل هذه الصفات عندما سمع قول عبيد الله بن قيس الرقيات فيه :

يأتلق التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

غضب وقال لابن قيس الرقيات : تمدحنى بالتـــاج كأنى من العجم وتغزل في مصعب بن الزبير :

انما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء

ملكه ملك عزة ليس فيه جبـروت منه ولا كبـرياء

وعبد الملك محق في هذا اللوم لان مدح ابن الرقيات لمصعب أروع وأبلغ وأليق بالحاكم العربى المسلم أما مديحه لعبد الملك فبعيـــد عن ذلك ، ومن منا لا يحس بالفرق القـــوى في نفحات ابن قيس عندما مدح مصعب بن الزبير الذى جاهد الشاعر الى جـــواره عن ايمان وحب ومدحه لعبـــد الملك الذى ســـاقته اليه الايام ، وأين الشهاب من الله تتجلى عن وجهه الظلماء من الجبـــين الذى كأنه الذهب ، والتاج يأتلق فوقه ، أين تلك الحماسة الدينية التى تجرى في الصورة الرائعة ، صورة الشهاب المقدس تتبدد عنه الظلمات ، أين هذا من الجبين الذى كأنه الذهب ، وما في التشبيه من ابتـــذال وركاكة وكذب (١) .

واذا كان عبد الملك لم يرق له مدح ابن قيس لانه وصـــــفه بصفات لا يوصف بها الا الاعاجم وكان يتمنى أن يمدحه بصـــفات دينية نفســـية .

فأغلب الظن أن هشاما كان يتمنى أن يمدحه الكميت بصفات دينية على غرار مدائحه في بنى هاشم ولكن ابن قيس كان صادق الشعور فلم يستطع أن يكذب أو ينافق وكذلك كان الكميت في مدحه لهشام ولغيره من بنى أمية .

دكتور : حمدان عبد الرحمن أحمد
مدرس الادب والنقد بكلية اللغة العربية
بأســـيوط

---

(١) النقد المنهجى عند العرب ص ١٥١